

في جنات ونعيم، إنما يجزون ما كانوا يعملون عدلاً وإحساناً، مهما كان جزاء الفاسقين عدلاً وليس إحساناً.

﴿فَكَهَيْنَ بِمَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾:

نعمتان اثنتان، إيجابية: ﴿فَكَهَيْنَ﴾ من الفكاهة: حديث ذوي الإنس: مستأنسين ﴿بِمَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وسلبية: ﴿وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ بما اتقوها بتقواهم.

وينضاف إلى نعمتيهم هاتين كل تبجيل وتجليل، وتهنئة وتكريم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

فالتنعم الناتج عن العمل مهني بالذات، وقد أضيف إليه أمر المضيف فازداد رحمة على رحمة.

وفيما إذا سئلنا: ما هو الفرق بين جزاء الكافر والمؤمن - إن جزاء المؤمن ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا نفس العمل، وجزاء الكافر ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فالجواب: أن المؤمن كذلك يجزي نفس عمله الصالح، ولكنه بزيادة عما عمل وبفضل الله وإحسانه، فليس جزاؤه إذن قدر عمله، ولكن الكافر لا يجزي إلا قدر ما عمل: وهذا عدل من الله هنا، فضل منه هناك.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾:

هذه النعم الثلاث مزودة برابعة هي اتكاؤهم على سرر مصفوفة: منسقة هي فمنسقة جموعاً من أهل الجنة، متمتعين بلذة التجمع بإخوان على سرر متقابلين، ومصفوفة كذلك: مرمولة: مزينة بالجواهر والذهب والفضة.

وخامسة بعد اكتمال هذه النعم روحية وجسمية، تجعلهم غارقين في

بحر النعيم:

﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٢٥):

كأمتع ما يتمتع به الإنسان جسدياً، إضافة إلى أزواجهم المؤمنات، اللاتي يدخلن معهم الجنة أزواجاً لهم فيجعلهن الله كحور عين كما توحى آية المشية^(١) وروايتها^(٢).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢٦):

آية فريدة في نوعها تضم أهم المباحث في باب الجزاء العدل والفضل، تتطلب بحثاً وتنقيراً فصلاً، فإنها ضابطة شاملة ترجع إليها فروع عدة وتجاوبها دعاء الملائكة حملة العرش ومن حوله: ﴿... وَاسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧) ﴿٨﴾ (٣) فلو أن الآباء والأزواج والذريات كانوا على درجات الذين آمنوا وتابوا واتبعوا سبيل الله، لم يكن لفصلهم عنهم ورجاء لحوقهم من معنى.

ثم وآية الذرية تلك تقول: ذراري المؤمنين، التابعون لهم بإيمان، يلحقون بهم دون ألت ونقص من أعمالهم، والنفوس كلها رهينة أعمالها، فمن هم هؤلاء الذراري؟ وما هو اتباعهم بإيمان؟ وأين الإلحاق؟ وما هو مداه؟ ولماذا مظنة الألت: النقص - من أعمالهم وليس من جزائهم؟ وما هو دور ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ هنا؟.

(١) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ومن أفضل ما تشاؤه النساء أن يصبحن كحور عين فأزواجاً لأزواجهن.

(٢) روضة الكافي عن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لرجل من الشيعة: أنتم الطيبون ونسائكم الطيبات كل مؤمنة حوراء عيناء..

(٣) سورة غافر، الآيتان: ٧، ٨.

الذرية في الأصل من الذر: الصغير ومنهم صغار الأولاد والأهل، فهم الأتباع - أي كانوا، بطبيعة الحال - لمن يعولهم ويربيهم ويدير شؤونهم، فيتبعونه فيها، وكذلك في الإيمان أو الكفر، وإذ نتوسع في معناها نعممها لكافة الأتباع: من بنين وأهلين وآباء وأمّهات وسواهم، أقارب وشعوباً ما هم أتباع، وكما يعبر عنهم الرسول ﷺ بالرعية: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فالذرية مضمّن فيها معنى الضعف والقصور، ولو أحياناً: ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾^(١) مهما كانوا كباراً في الأعمار، أو لم يكونوا من أولاد رعاتهم، وأخرى تتحلل عن ذلك متمحضة في التسلسل فحسب، فقد تفوق الآباء والجدود، كما النبون على آبائهم غير النبين، أو من هم دونهم في النبوة، وكخاتم النبين على بني الإنسان كافة، إلا أن ذلك بدليل، كما وأن الضعف والقصور في المكانة والاستعداد يعرف بدليل كما هنا.

فالذرية هنا من القبيل الأخير، بدليل اتباعهم رعاتهم الأصول بإيمان، فهنا مؤمنون متفوقون في الإيمان، وآخرون يتبعونهم من ذريتهم بإيمان، فلو كانوا كآبائهم أو فوقهم لم يكن لاّتباعهم لهم من معنى! كما وأن في إلحاقهم بهم في ثواب الإيمان، أو حكمه، أو درجاته: مكاناً أو مكانة، إن في ذلك دلالة ثانية على قصورهم عنهم، وإلا فلماذا الإلحاق؟ لو أنهم كآبائهم أصلاء في الإيمان، فليكونوا في ثواب الإيمان ودرجاته أيضاً أصلاء.

ثم اتباعهم بإيمان، أنه - ولا بد - من فعلهم، مهما ساعدته توجيهات من المتبوعين، كما يوحيه الاتّباع، فهنا شروط مثلثة تتجاوب في إيمان

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٣.

الذرية الأتباع: توجيهاً من الأصول تهياً ظروف الأتباع وأجواءها، ومحاولات من الفروع استجابة لأصولها، وتوفيقاً من الله تربط بين الضلعين ليكمل مثلث الهداية الإيمانية.

ولماذا «بإيمان» منكرًا، وليس «بالإيمان» معرفًا؟ لأن الإيمان في أية درجة كان يبرر ذلك الإلحاق، فالمعرف منه يوحي أنه كإيمان الأصول، إذاً فلا معنى للإلحاق لأنهما على سواء، فإيمان مصيره الجنة، مهما خالطه ما يُستحق به النار، إنه يُلحق صاحبه بالأصول على أية حال، رأى صاحبه النار أم ما رآها.

ثم الاتباع الإيماني ينفي ما عداه من الاتبعات والانطباعات، أية انطباعات وأية اتبعات، اللهم إلا الإيمانية فحسب.

إذاً فهؤلاء الذرية هم المكلفون المؤمنون، دون القصر ولا الكافرون، إذ لا اتباع لهؤلاء ولا هؤلاء بإيمان، فالقصر غير مكلفين، فلا يطلب منهم إيمان، ولا يتأتى منهم اتباع بإيمان، الذي هو فعل اختياري من الذرية: ﴿وَاتَّبَعَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ وأما الإيمان الفطري والتشريعي فهما من فعل الخالق المشرع دون المخلوق المشرع، فماذا تكون إذاً حال القصر من أولاد المؤمنين وأولاد الكافرين؟ انتظر الجواب في أخريات البحث.

وأما الإلحاق، فهل يشمل الآخرة والأولى جزاءً في الآخرة وحكمًا في الأولى؟ علّه يشمل حيث تتحملة الآية، ولا سيما بإيحاء الماضية: ﴿الْحَقْنَا﴾ ولكننا الأخرى هي الأولى، استيحاءً من رهانة النفوس بأعمالها، إذ لا تظهر تمامًا في الدنيا.

وأما عن مدى ذلك الإلحاق في الآخرة؟ فقد يتحقق بكافة الدرجات في جنات المعرفة والرضوان بسائر المكنات، فضلاً عن الأمكنة والماديات، وهذا مخصوص بالآباء والذريات القريبى الدرجات كما بين الرسول

الأقدس محمد ﷺ وذريته الأئمة الأوصياء^(١) فإنهم قلوب واحدة بقوالب عدة، دون اختلاف في الدرجات، اللهم إلا في كرامة الوحي الخاصة به ﷺ دونهم ﷺ، وإلا فـ «أولنا محمد - آخرنا محمد - أوسطنا محمد: وكلنا محمد» وكما توحيه آية التطهير وأضرابها، وفيما تكون الدرجات بين الآباء والذريات شاسعة بعيدة، فالمتيقن من هذا الإلحاق، هو الحفظ المادية، أو ومعنوية أحياناً حسب متطلبات الآباء، فاللحوق إذاً يشمل قسميه، طالما التسوية المطلقة بمفردها لا تناسبه فإنها ليست لحوقاً، وإنما بمناسبة الجمع، الذي تبرره الأكثرية الساحقة من غير المسوين تماماً.

وكيف تلحق الذريات بالآباء وهم أتباعهم ودونهم في الإيمان، أليس يقتضي ذلك الإلحاق نقصاً من أعمال الآباء ليزيد في أعمال الذرية حتى يستحقوا التسوية بالإلحاق؟ وهذا ظلم بالآباء! وزيادة للذرية دون عمل! حتى ولو زيد في أعمالهم دون نقص عن الآباء، ومظنة الألت هذا يقتضي سلباً وإيجاباً في الجواب: **فَسَلْبًا ﴿وَمَا أَلْنَهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾** : نلحق بهم

(١) الكافي عن أبي عبد الله ﷺ في الآية قال: الذين آمنوا النبي ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ وذريته الأئمة الأوصياء ﷺ «ألحقن بهم» ولم تنقص ذريتهم الحجة التي جاء بهم محمد ﷺ في علي ﷺ وحجتهم واحدة وطاعتهم واحدة. البرهان ٤ : ٢٤١ محمد بن العباس مسنداً إلى علي بن زيد قال عبد الله بن عمر: كنا نفاضل فنقول: عمر وأبو بكر وعثمان، ويقول قائلهم فلان وفلان، فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن فعلي ﷺ فقال: على من أهل بيت لا يقاس بهم أحد من الناس على مع النبي في درجته ثم استدلل بهذه الآية.

وفيه عنه بإسناده المتصل عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ.

وفيه الشيخ في أماليه بسند متصل عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر وجعفر بن محمد ﷺ يقولان: إن الله أعوض الحسين ﷺ من قتلته أن جعل الإمامة في ذريته والشفاء في تربته وإجابة الدعاء عند قبره ولا تعد أيام زائريه جائياً وراجعاً من عمره، قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: هذه الخلائ ينال بالحسين فما له في نفسه؟ قال: إن الله تعالى ألحقه بالنبي ﷺ فكان معه في درجته ومنزلته ثم تلى ﷺ هذه الآية.

ذريتهم دون أن ننقص من أعمالهم شيئاً، وكما عن النبي ﷺ قوله: وما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين^(١) وإيجاباً: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فقد تختص رهانة النفوس بطالحات الأعمال دون صالحاتها، كما توحيه الرهانة نفسها فإنها القيد والحصر، وكذلك آيتها الأخرى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٢٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ (٢٩) ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَرْهَنُونَ إِنْ لَمْ تَبْقَ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ، بَيْنَ مَا لَمْ يَاقُتُوا وَمَا كَفَرُوا عَنْهَا، فَنَفْسُهُمْ لَيْسَتْ رَهْنَةً لِطَالِحَاتٍ وَسَجِيَّتِهَا.

وقد تدل رهانة النفوس بأعمالها أنها باقية معها، وكما تدل عليه ﴿وَمَا أَلَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ دون «من ثوابهم» فإمكانية النقص من العمل ليست إلا بقاء العمل، إذا فالمستفاد من هذه الضابطة: أن السيئات هي الرهانة لأصحابها، تقدر عقوبتها بقدرها، أو ويعفى عن بعضها في ظروفها، وأما الحسنات فهي لا ترهن وتقيّد أصحابها بقدرها، فإن الثواب دوماً يزيد على الطاعة، في أصلها إذ لا تحقق جزاءً إلا بفضل من الله، وفي قدرها فـ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ (٣) ثم هناك مزيد عند الله بغير حساب ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٤) إن الله يرزق من يشاء بغير حساب!

فآية الرهانة حين ترهن وتأسر السيئات بقدرها في العقوبات عدلاً أو بأقل منها فضلاً، فهي تحرر الحسنات عن حدودها في الثواب، كما في كافة المؤمنين، بل وتحرر الثواب كذلك عن قيد الحسنات فيما لم تكن سيئات ولا حسنات كأطفال المؤمنين والكفار، وكذلك فيما كانت سيئات مكفرة وحسنات لا تستحق إلا قدرها من الثواب الفضل، كدخول الذرية التابعين بإيمان، الجنة، ثم إلحاقهم بأبائهم في درجاتهم أو بعضها فإنهم يستحقونها

(١) الدر المنثور ٦: ١١٩ - أخرجه البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ.

(٢) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٤) سورة ق، الآية: ٣٥.

إذ لم يعملوا لها ولكن الله يلحقهم بالآباء تقريراً لعيونهم^(١)، رغم أن الذرية أنفسهم لا يستحقونها لا عدلاً ولا فضلاً!، فإذا يلحقهم الله بآبائهم، ليس ذلك إلا إكراماً للآباء حيث تقر عيونهم، فتقدر - إذاً - درجات الإلحاق هذا بما تقر به عيونهم، دون أن يألئهم وينقصهم من أعمالهم من شيء، فكما زاد في ثوابهم أن رفعهم درجات فوق أعمالهم، كذلك يزيد لهم أن يقر عيونهم بإلحاق ذرياتهم المؤمنين بهم، وهذا لا يتنافى والجزاء العدل، فإنه طرف من تكريم الآباء.

ومن وجهة أخرى إن الذريات التي أقرت عيون الآباء، إن اتبعتهم بإيمان، كذلك تقر عيونهم بهذا الإلحاق، فضلاً من الله وإحساناً، دون فوضى لا في العدل ولا في الفضل، فإنه نتيجة عمل ثنائي: منهم إذ قرروا باتباعهم الآباء عيونهم وبآبائهم إذ أنهم من عملهم ولادة وتربية، وأن ذلك مما يشاؤون والجنة: ﴿لَمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(٢).

صحيح أن الذرية ما عملوا كما عمل الآباء، إلا أن في لحوقهم جزاءً على عمل الآباء، فلا ظلم على الآباء في ذلك بل هو فضل، ولا فوضى في الفضل على الذرية إذ ليس إلا مغبة تقرير عيون الآباء، طالما الفوضى وخلاف العدل في إلحاق غير الذرية إلى هؤلاء في درجاتهم أو بعضها، فإنهم لا يستحقونها ولا فضلاً، وهذه التسوية خلاف العدل إذ لا تقرير لعيون المسوى بهم.

لذلك - وفي توسع من معنى الذرية أو حكمها - بإمكاننا أن نتخطى

(١) الدر المنثور ٦: ١١٩ - أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول: يا رب! قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم وقرأ الآية. وفي معناه، رواه في الكافي عن أبي عبد الله ﷺ في الآية قال: قصرت الأبناء عن عمل الآباء فألحقوا الأبناء بالآباء لتقر بذلك أعينهم.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٥.

الأولاد والأهلين إلى كل التابعين لرعاتهم بإيمان، ما كان في إلحاقهم بهم تقرير لأعينهم، وإن كانوا آباءهم التابعين لهم بإيمان وأمثالهم من الأقارب غير الأولاد وكما يروى عن الرسول ﷺ ^(١) أم وغير الأقارب كما في كل مأموم لإمامه، هذا، وكما يتضمنهم دعاء الملائكة للمؤمنين الأصول: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ^(٢).

ثم وفي وجه آخر لآية الرهانة: أن يشمل الرهن فيها صالح الأعمال أيضاً.

نقول إن الذرية وإن لم تعمل ما يؤهلها لهذا الإلحاق، إلا أنهم في اتباع الإيمان من مكاسب الآباء ولو في زاوية من مثلث الاهتداء، وإن الآباء عملوا لهم كما عملوا لأنفسهم، وعلى حد المروي عن الرسول الأقدس ﷺ ^(٣) فكما للإنسان أن يعمل لنفسه، كذلك له أن يعمل لمن هو كنفسه إن ساعدت ظروفه، واتبعه بإيمان كما تقدم حسنات للأموات مهما كانوا غير مخصصين بالعاملين، وأن لا يصلحهم إلا بعض ما يقدم لهم، فكذلك وبأحرى للذريات، وأن لا يصلحون بذلك درجة الآباء، فهم بحاجة إلى الإلحاق، فضلاً من الله وإحساناً ثم ولا ينقص من أعمال الآباء شيء لأنها باقية معهم دون مزايلة، وهم مرهونون بها دون فكاك، فكيف ينقص منها؟ بل ويزاد عليها حسنات فسواء اختصت الرهانة بالسيئات، أو عمت الحسنات، فالتابعون لآبائهم بإيمان يلحقون بهم بإحسان دون نقص من أعمالهم شيئاً، ودون منافاة لرهانة الأعمال أياً كانت.

(١) الدر المنثور ٦: ١١٩ وقد سبق قوله ﷺ هنا: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به وقرأ الآية.

(٢) سورة غافر، الآية: ٨.

(٣) في المجمع روى زاذان عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وروي عن الصادق عليه السلام قال: أطفال المؤمنين يهدون إلى آبائهم يوم القيامة.

وأخيراً ما هو دور القَصْر من أولاد المسلمين، صغاراً ومجانين، وكذلك هما من الكافرين؟.. نقول: إن الذراري القصر المسلمين، وأن لا يشملهم صدر آية الذرية، إذ اختصت بالمكلفين، إلا أنهم مشمولون لذيلها: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ في الوجه الأول، كما يشمل القصر من الكافرين وإن كان بينهما فرق بان في إدخال الأولين الجنة تقريراً لعيون آبائهم دون الآخرين، فالعقاب والعقاب فقط لزامه السيئة، وأما الثواب فلا يتطلب حسنة ولا سيما ممن لا تتأتى منه ولا تأتي من راعيه، فأولاد المؤمنين يدخلون الجنة وكما يروى عن الرسول ﷺ والأئمة من آلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَلَّ مصير أولاد الكفار ومجانينهم خطيرة بين الجنة والنار إذ لا طاعة لهم ولا عصيان ولا رهانة خيرة لأبائهم حتى يدخلوا الجنة تقريراً لعيونهم ولا شريرة لكي تدخلهم النار، وليس بذلك البعيد من رحمة الله أن يدخلهم أيضاً الجنة ولكن أدنى من قَصْر المسلمين.

وهناك رواية يتيمة تؤجج النار للقصار أياً كانوا امتحاناً لهم هل هم مؤمنون فيدخلوا الجنة، أم كافرون فيدخلوا النار امتحاناً^(١) ولكنها لا مصير لها إلا النار!

فهنا نتساءل مختلقي هذه اليتيمة المخالفة للكتاب والسنة: أليس من الضروري انقضاء التكليف بالموت؟ فكيف يتكلف الأطفال بعد الموت وهم قصر بهذا التكليف العضال، الذي قلما يكلف به المكلفون الأقوياء: أن يدخلوا النار!

ثم وما بال البعض منهم يعصون، والقيامة يوم ظهور الحقائق دون

(١) نور الثقلين ٥: ١٣٩ عن الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن غير واحد رفعوه أنه سئل عن الأطفال! فقال: إذا كان يوم القيامة جمعهم الله وأجج لهم ناراً وأمرهم أن يطرحوا أنفسهم فيها فمن كان في علم الله أنه سعيد رمي بنفسه فيها وكانت عليه برداً وسلاماً ومن كان في علمه أنه شقي امتنع فإمر الله بهم إلى النار، فيقولون: يا ربنا! تأمر بنا إلى النار ولم تجر علينا القلم؟ فيقول الجبار: قد أمرتكم مشافهة فلم تطيعون فكيف لو أرسلت رسولي بالغيب.

استثناء، ولو للكفار الذين عاشوا حياتهم كفرًا وعصيانًا، فهم يرجون هناك أن لو نفعهم إيمانهم فيؤمنوا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾^(١)، فكيف يعصي هؤلاء الصغار وهم أعرف بالحقائق هناك من الكفار، لصفائهم وعدم كفرهم؟ أم وإذا خالفوا أمر دخول النار كيف يستحقون به النار؟ لأنهم عصوا الله مشافهة؟ فهو إلحاد في الله أنه يشافه و﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾^(٢)! أم عصوه إذ أغروا بجهلهم فهم إذًا معذورون، والإغراء بالجهل واستغلاله ظلم سبحانه العزيز الجبار، أو أنه من المعاصي الصغار، لو تأتي العصيان من الصغار، فكيف يحكم عليهم بدخول النار؟ أو يحكم لمن أطاع منهم هناك وآمن بدخول الجنة خلافاً لسنة الله التي قد خلت في عباده: إن الإيمان عند رؤية البأس لا ينفع!

إذاً فلا مرد لهذه اليتيمة إلا النار، ولكي نرحل القصر المبتلين بها من النار، كما هو مرد كل ما يخالف الكتاب والسنة مهما كثرت روايته وكبرت رواته فضلاً عن هذه الوحيدة الهزيلة، المرفوعة الشاذة الذليلة، المتناقضة في نفسها، رغم أنها رائجة في أسواق تجار الإسلام المفتري عليه.

ومثلها يتيمة أخرى تفصل بين أولاد المؤمنين - فإلى الجنة وبين أولاد الكفار - فإلى النار!^(٣)

(١) سورة غافر، الآية: ٨٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٣) تفسير روح البيان ج ٩ ص ١٩٣ نقلاً عن عين المعاني: سألت خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال ﷺ: هما في النار، فكرهت فقال ﷺ: لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: فالذي منك؟ قال ﷺ: في الجنة، إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار.

ومثلها ما في الدر المنثور ٦: ١١٩ - أخرجها عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار ثم قرأ الآية.

وهذا التفسير يتصدى لأمثالها من المخلوقات الزور الغرور، فإنه لها بالمرصاد.

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾:

إن المتقين والمؤمنين - بعد هذه المكرمات - يمددهم ربهم بفاكهة ولحم مما يشتهون، وهما من أفخر وألذ المأكّل، مما يتطلب كأساً مثلها، وإذا هم يتعاطونها بما فيها من خمر، لكنها ليست كخمر الدنيا إلا في اسمها إذ ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ لا في الجنة ككل، ولا في الكأس، ولا في خمرها، لغو القول ولا لغو الفعل، وكذلك التأثيم، طالما هما في الدنيا وكأسها وخمرها من سكر فعريضة وهذر وهذر وإيذاء واستئذاء وهتك للحرمت وكل لغو وتأثيم، ولكنهم في الجنة يتعاطونها ويتجاذبون متلاعبين متفكهين بلا أي لغو أو تأثيم، كمتنازعين وليسوا متنازعين.

وكما أنها فيها ليست خمرّاً تخمر العقل فتخلف كل لغو وتأثيم، وإنما التنازع هنا تلاعب، زيادة في الإيناس ولذة النعيم^(١) ثم ويزيدهم لذة تطواف غلمان لهم، قد يكونون من ذريتهم القصر الملحقين بهم، أم سواهم المختصين لهم في الظرافة والصفاءة ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾: محفوظ، فكما اللؤلؤ المكنون في كنه الصدفى أو الذهبى والفضي أم سواها، باقى على نظافته وطراوته، كذلك هؤلاء الغلمان، فهم على ما خلقهم الله في أكنان تصونهم عن أي عيب أو ظنة، .. ترى إذا كان الغلمان الخدم كاللؤلؤ المكنون فكيف بالمخدوم؟ هنا يجيب الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم»^(٢).

(١) راجع ج ٣٠ الفرقان «بين خمر الدنيا والآخرة».

(٢) الدر المنثور ٦: ١١٩ - أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال: بلغني أنه قيل: يا رسول الله ﷺ هذا الخدم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم؟ قال: ...

ولكي يتصارحوا ونسمعهم بوحى القرآن، لماذا ألحقت بهم ذريتهم
وغلمان لهم؟ واستكمالاً لأنفسهم بأهلهم:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيهِ أَهْلًا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾
فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِ وَأَوْقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ
الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾:

يوحي الجواب أن أتساءل لا يخص أسباب دخولهم الجنة، بل ولحوق
ذريتهم بهم وهم يعملوا عملهم، فهؤلاء المؤمنون الأصول كانوا في مثلث من
دوافع هكذا رحمة: ﴿... كُنَّا... مُشْفِقِينَ﴾ و﴿فِي أَهْلَانَا﴾ و﴿كُنَّا...
نَدْعُوهُ﴾ وهذه هي جذور الإيمان.

فالإشفاق من الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند الغروب،
فهو عناية مختلطة بخوف، طالما المعدى منه بمن أظهر في الخوف، وبني
أظهر في العناية، وبالباء خاص بالشفقة.

إلا أن ﴿مُشْفِقِينَ﴾ هنا لم يعد بشيء فهو يوحي بحالة لهم بين الخوف
والرجاء، خوفاً من أعمالهم، ورجاء بآمالهم في رحمة الله، إشفاقاً من الله
﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾^(١) من عذاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ
رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾^(٢) وإشفاقاً في رحمة الله وإشفاقاً بأهلهم، إذ كانوا يراعونهم
ويحافظون عليهم بشفقة، فقد كانوا غرقى في مثلث الإشفاق: من الله، وفي
الله، وبأهلهم وهم فيهم!.

وإذا كان هذا الإشفاق في كافة الحالات وكما تقتضيه ﴿كُنَّا﴾ الدالة على
دوام كما ويشكرهم الله على هذا الدوام: «وكانوا مني على كل حال مشفقين»^(٣)

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٧.

(٣) نور الثقلين ٥: ١٤٢ في كتاب سعد السعود لابن طائوس نقلاً عن مختصر كتاب محمد بن =

في الخلوات والجلوات، بين الأغارب والأهلين، كان - إذاً - كاملاً للمشفق، ومكماً لمن فيهم يشفق وبهم، إذ عاشوا كذلك وفي أهليهم، حيث الأمان الخادع ولكنهم لم ينخدعوا، وحيث المشغلة الملهية، ولكنهم لم يلتهاوا وينشغلوا، وهم بذلك الصمود في صبغة الإيمان أحالوا حول أهليهم بهالة مشرقة من الإيمان، وحالوا بينهم وبين اللاإيمان، فإن حالة الرعاة تؤثر في الرعية على أية حال، وبذلك فذريتهم اتبعتهم بإيمان، فحق لهم أن يلحق بهم ذريتهم دون أن يؤلت من أعمالهم من شيء، ف ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

والزاوية الثالثة لمثلث الإيمان، أنهم لم يكتفوا بإشفاقهم في أهلهم «بل وكانوا يدعون الله ويلتمسون من بره ورحمته»: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ والدعاء مخ العبادة.

فلم يفدهم إلا ما قدموه من قبل - «كنا قبل» ﴿كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ - ، وأما بعد فوات الأوان بوفاة الإنسان فلا موقع لإيمان، ولات حين مناص، إذ فات أوان الخلاص.

هنالك يصف أمير المؤمنين علي عليه السلام حالهم في الله وابتغالهم إلى الله: «أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله وأنهم ليصبحون ويمسون شعناء غبراء خمصاء، بين أعينهم كركب المعزاء يبيتون لرهبهم سجداً وقياماً، يراوحن بين أقدامهم وجباههم، يناجون ربهم ويسألونه، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون»^(١).

= العباس بن مروان بإسناده إلى جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث طويل يذكر فيه شيعة علي عليه السلام ودخولهم في الجنة - إلى قوله صلى الله عليه وآله عن الله: «فمرحباً بعبادي الذين حفظوا وصيتي في أهل بيت نبيي ورعوا حقي وخافوني بالغيب وكانوا مني على كل حال مشفقين».

(١) نور الثقلين ٥: ١٤١ عن أصول الكافي بإسناده إلى معروف بن خربوذ عن أبي جعفر عليه السلام قال: صلى أمير المؤمنين بالناس الصبح بالعراق فلما انصرف وعظم فبكى وأبكاهم من خوف الله عز وجل ثم قال: ...

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
تَرْبِصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرِيبِينَ (٣١)
أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ لَهُ بَلْ لَا
يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ
غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخُلُقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا
يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمَصْبِطُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ
(٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُمُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ
غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا
سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرَّهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ
لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ
ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ نَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ (٤٩) ﴿

هذه الآيات، سريعة الإيقاعات، تطارد المتطاولين على أم الرسائل
في تحديات قوية، واحتجاجات عقلية وواقعية، لا يثبت لها الإنسان أيًّا
كان، فلا طريق له إلا الإيمان أو يسامح عن عقله.

إنها تستعرض ستة عشر أمراً، بين ما يرجع إلى النبي ﷺ تثبيتاً له، أو

دفاعاً عنه، لولاها لانتفت صلاحيته للرسالة^(١) وما يرجع إلى المكذبين أنفسهم^(٢) فتزيح كافة أعذار العصيان من البين، عن الرسول كمتبوع، وعنهم كأتباع، ليبقى المكذبون به مدحضين.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾^(٢٩):

عليك التذكير ما نفع، وإن كان كحجة قاطعة العذر على الشاردين، مهما تقولوا عليك بتهمة الكهانة أو الجنون^(٣) فلا يثنيك عن واجب التذكير فريتهم الحمقاء السوء التي ترجع إليهم بكل فضيحة وتبوء.

تري أن نعمة الوحي الرباني المحمدي، وهي أنعم النعم الروحانية، اللائحة من أقواله وأفعاله، هل إنها تسبب الكهانة أو الجنون، أو تصاحبهما^(٤)؟ إذا فنقمة الوحي الشيطاني الواضحة في المفتريين هي التي تعارضهما وتفاصلهما؟ فما أجن وأكهن هؤلاء الحمقى، فإذا لا يجدون مناصاً عن حجته البالغة، يتهمونه بالكهانة والجنون، اللذين يطاردهما بالوحي الحنون، وإن العجب ليأخذ كل من درس شيئاً عن سيرة الرسول ﷺ من تقولهم هذا، وهم الذين عرفوه برجاحة العقل والأمانة بينهم حتى لقبوه بمحمد الأمين، ثم إذ بعث بما لا يلائم شهواتهم وحرياتهم اتهموه وبهتوه.

والفرق بين الكهانة والجنون، أن الثاني فقدان العقل فلا تنضبط أفكاره وتصرفاته، والأول الإخبار بالأخبار الخفية الماضية والمستقبلية بضرب من الظن، الصادرة عن الشياطين المسترقين السمع المرجومين ويعرفان بمناقضة

(١) كتهمة الكهانة والجنون والشعر والتقول على الله وسؤال الأجر على الرسالة.

(٢) ككونهم خالقين أو خلقوا من غير شيء، أم عندهم الغيب، أم أن لهم إلهاً غير الله أم..

(٣) راجع سورة القلم ج ٢٩ من الفرقان.

(٤) الباء هنا محتمل الوجهين: السببية والمصاحبة، بسبب النعمة أو مصاحبته.

كل مع نفسه، ومع الواقع والعقل، فأين المناقضة من هذه وتلك في مقالات الرسول ﷺ وأفعاله لكي يستحق تهمة الكهانة أو الجنون؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ (٣٠):

شاعر لا مخلص منه إلا أن نترصد به اضطراب الموت، فإنما بموته، وبموته فقط، يموت ذكره، وتموت دعوته، فالمنون من المن: النقص، يعبر به عن المنية: الموت، لأنها تنقص العدد وتقطع المدد.

ترى كيف لا يشعرون - وهم من مواليد الشعر - أن الشعر له وزن خاص، وليس القرآن مثله، وأنه يخلط الغث بالسمين والقرآن كله سمين، وأنه في أزواجية التناقض، مع نفسه والواقع، ولا تناقض في القرآن، وأن لكل شعر دوراً ودور القرآن مدار الزمن ما طلعت الشمس وغربت، فأخر كيدهم أن يترصدوا به اضطراب الموت، ولكي يختلقوا لأنفسهم عذراً ردياً من الزمن، ولكن ترى من هو الناجح بموت الرسول ﷺ؟:

وقد يعني ﴿رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ حوادث الدهر، أن يترصدوا به لتأخذه كوارثه القاصمة، وحوادثه الحاسمة، لكي يتخلى عن دعواه، أو تأخذه نكبة دعوته بما تنهافت كل دعوة باطلة، وتتساقط على مدعيه فاضحة إياه، أو يلاحقه من يترصد به الدوائر، بما عندهم من أساليب تسقطه عن مكانته، وتفضحه في ذعرته، أم ماذا؟.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ ولكي يفتضحوا هم وهو غالب الحجة ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ولكي تستبين لكم سبيل المجرمين، فلا يزدادكم التربص إلا حسرة، ولا يزداده إلا نمواً وكثرة.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ (٣١):

فسوف تعلمون أن بموتي لا تموت دعوتي، ولا ينتهي دور شعري!

فإنما يبقى ما بقي الدهر وكما قال وحيدكم بعدما فكر وقدر: ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾^(١): يبقى ولا يزول، مما يدل أنه لا سحر ولا شعر! ألا فتربصوا، فستعلمون من تكون له عاقبة الأمور، ومن ينتهي به التربص إلى النصر والظهور؟ هذا هو القرآن الالامع، والتبيان الصادع، الذي لا يزداده مرور الدهور إلا زيادة النور والبهور.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^(٢):

تبكيت لهم وإزراء عليهم، ما الذي يدفعهم إلى هذه الأقاويل الزور: أنه كاهن أو مجنون أو شاعر أم ماذا؟ هل هو أحلامهم؟: عقولهم الحكيمة كما يدعون؟ وقد علموا بعده عنها ومباينته لها! وأي عاقل يرمي معدن العقل وبحبوحته بالجنون؟ فما هذا أمر الأحلام، وإنما أمر الجنون!.

أم أن الأحلام هنا تعني رؤيا المنام، فأحلام العقل لا تأمرهم بهذا وإنما أضغاث أحلام، التي يحكم ضعفاء عقول الأحلام.

أم لا هذا ولا ذاك ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^(٢): على عقولهم لو كانت لهم عقول، وطاغون على الله، وعلى رسالات الله، ولكي يتحللوا عما يأمرهم عن البربريات والحريات في الشهوات، تسامحاً عن عقولهم، وسماحاً لشهواتهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣):

- ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ ﴿٤٧﴾^(٣).

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

والتقول هو تكلف القول الكذب المخلوق، والقرآن بنفسه في مربع حصين يدل على وحيه الصادق الأمين:

١ - عدم الاختلاف فيه. لا مع بعض في أي من الجهات، ولا مع العقل أو الواقع ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

٢ - وترى لو كان هذا القرآن من عند غير الله، فما هي إذا صفة قول الله، التي يفقدها القرآن؟ ما هي إلا قمة الرصانة والتمانة المتواجدة في القرآن!

٣ - ثم ولو أمكن القول فيه، فما لله لا يأخذ من محمد باليمين، ولا يقطع عنه الوتين، ذوداً عن كرامته، ودفعاً عن فريته، بل وزوده فيه وفي قرآنه بأقوى المعجزات وأخلدها! إذاً فما هو تقوّل ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾!

٤ - وأخيراً لو كان تقولاً من كاهن شاعر مجنون، فأتوا أنتم العقلاء الشعراء النبلاء بمثله:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٢٤):

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) أو ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾^(٣) وأقلها ثلاث آيات كالكوثر، فكيف بالقرآن كله: ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٤).

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، لا صدفه أو لعدم المحاولة، وإنما الاستحالة ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٥).

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة هود، الآية: ١٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

إن في القرآن سرّاً إلهياً يدركه كل من يواجه نصوصه بصفاء ورواع، متحلاً عن سلطان التعصب، ثم يزيده مهما زاد تعمقه وتأنقه، ميزة في سبك الألفاظ وسكب العبارات وحتى في موسيقاها، فضلاً عن معانيها وملامحها التي تأخذ من القلوب شغافها، ومن الألباب أعماقها، ومن الحواس ألبابها. وهو يخاطب العقول والفطر بأسلوب لا يعهد بين البشر^(١):

فلو كان هذا القرآن من مفتر شاعر كاهن مجنون فأتوا أنتم العقلاء وفيكم الشعراء البلغاء، والكهنة الأذكياء، والأدباء الأقوياء فأتوا بمثله ولماذا لا تأتون! وإذ أنتم عاجزون صاغرون، فلماذا لا تؤمنون؟ ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدُهُ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

ومن ثم لم يبق مناص إلا الإيمان به، أو تكذيبه ككلام الله، فالتكذيب بالله، أو نكران توحيد الله أو وجوده، وإذا كان هذا داؤكم فإليكم دواؤكم:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٢٥) ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٣١):

قد توحى ﴿أَمْ﴾ هنا بحذف شيء مسبق، هي بديل عنه ودليل عليه ك: - أليسوا هم مخلوقين؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا...﴾ أسئلة تقريع وتبكيث بهؤلاء الناكرين، وقد حولت الأجوبة إلى عقولهم حتى ولو سامحوا عنها، لأنها من أوضح البديهيات، وفي قمتها أنه مخلوق، ولذلك لم يذكر في عداد الاحتمالات، إذ لا أحد - حتى ولو كان مجنوناً، أو أصغر حشرة - ينكر كونه مخلوقاً، مهما غبي وطغى!

(١) راجع بحث الإعجاز في سورة البقرة تجد فيها قولاً فصلاً عن إعجاز القرآن، وكذلك سورة الإسراء.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤٤.

فهنا في بساط البحث عن الله يكفى الإنسان نفسه دليلاً ومصدراً، تتدفق عليه الاحتمالات المسرودة:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾: من لا شيء، مهما تسمى بصدفة عمياء أم ماذا، أم اللاشيء المطلق عن الأسماء، فهل هناك شيء غيرك خلقتك؟ فهو الذي نسميه الله، أم لا شيء هناك إلا أنت، وسائر الخلق، دون أي خالق؟: مخلوق بلا خالق!.

وفيما إذا سئلنا: إذا كان الخلق من غير شيء محالاً، فكيف خلق الله الأشياء من غير شيء؟

والجواب: إن هنا خلطاً بين الشيء الخالق - هو شيء الأشياء، وهو الذي شيئاً الأشياء، وبين الشيء المخلوق به، ففرق بين الأشياء لو خلقت من غير شيء: دون خالق، أو من غير شيء: بخالق دون مخلوق به،: لا من شيء، ثم لا نقول، إنه خلق الأشياء من لا شيء، بل لا من شيء، فالمادة الأم خلقت لا من شيء كان قبلها، وإنما بإرادة الله الذي خلق كل شيء، ثم وخلق التراكيب التالية للمادة الأم، خلقها منها، وهو خلق من شيء.

فقد يكون هنا شيء ليس إلا هو، وهو الله قبل أن يخلق أي شيء، وقد يكون شيئان، فالشيء الأول الإله خلق الثاني لا من شيء، لا من لا شيء، وقد يكون ثالث خلقه الله من الشيء الثاني: المادة الأم، كسائر التراكيب المخلوقة منها، فالأشياء كلها مخلوقة من خالق، خلقها لا من شيء، أو من شيء، لا من اللاشيء، فإنه محال كما المخلوق بلا خالق.

فالله تعالى شيء لا كالأشياء، خلق المادة الأم لا من شيء، وخلق سائر الخلق من هذا الشيء، وهذه كلها تختلف عن خلق الأشياء من غير شيء، من لا شيء بمعنيته، حيث المخلوق بحاجة ذاتية إلى الخالق، ولا يمكن صدوره من مادة العدم.